أصول التفكير النحوي عند الخليل بن أحمد الفراهيدي بين الأصالة والتأثر

مرتضى فرح علي وداعة
جامعة ظفار – سلطنة عمان

المستخلص

تهدف هذه الدراسة في مجملها إلى الوقوف على أصول التفكير النحوي عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، ومعرفة مدى أصالة تأثرها بغيرها من عدمه. وتعتمد الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، والتاريخي، والاستقرائي. وقد تم تناولها من خلال تحديد المعني بأصول التفكير النحوي، ثم الوقوف على هذه الأصول عند الخليل، وهي: المسموع، الاستقراء، التعليل، القياس، ونظرية العامل. وتوصلت الدراسة إلى العديد من النتائج نجملها في أن أصول التفكير النحوي عند الخليل أصيلة ووليدة أفكاره، غير أن القياس عنده متأثر بالقياس الفقهي، ولم يتأثر بالقياس المنطقي.

كلمات مفتاحية: المسموع، الاستقراء، التعليل، القياس، نظرية العامل.

ABSTRACT:

This study aims to identify the origins of grammatical thinking at Al-Khalil Ebn Ahmed Alfaraheedi, and to know the originality of these assets affected. This study is based on the Descriptive and analytical, and Historical, and Inductive approach. It has been addressed by determining the meaning of grammatical thinking assets, and stand on these assets at Al- Khalil: Hearing, induction, justification, measurement, Theorem.

The study reached to many findings that the origins of grammatical thinking at Al-Khaleel are assets and from his ideas, but the, measurement is influenced by the jurisprudential measure, and was not affected by logical measure.

Key words, induction, measurement, justification, Theorem.

مـقدمـة

تعد أصول التفكير النحوي من أبرز الخطوط الأساسية التي شكلت الدرس النحوي عبر رحلته الطويلة منذ النشأة حتى النضج، ولما كان لكل نحاة فترة مؤثرات تؤثر في طرائق تفكيرهم؛ فقد تختلف هذه الأصول من فترة لأخرى أو قل من بين نحوي لآخر.

و يعد الخليل أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي(ت 170هـ) من النحويين الأوليين الذين أسهموا بقدر وافر لا تخطئه العين والبصيرة في بناء الدرس النحوي، وما يعتمد عليه من أصول وفق أصول تفكير معينة ذات معالم واضحة حددها الخليل وفق ما يرى معتمدا على الفكر الابتكاري الذي يعد سمة بارزة له؛ فهو مبتكر الترتيب المعجمي وفق نظام التقليبات في معجمه (العين)، ومبتكر علم العروض، والنغم، فقد قال عنه أبو الطيب اللغوي؛(ت351هـ):((هو مفتاح العلوم ومصرفها))(أبو الطيب اللغوي،2009م-1430هـ،ص 46) فلا غرابة إذن أن تكون معالم أصول التفكير عنده واضحة جلية.

وأصول التفكير النحوي عند الخليل بن أحمد متعددة، وحسب ما نرمي إليه لإيضاح الفكرة يمكن تحديدها بما يلي: أصول تفكيره في الاعتماد على المسموع، والتعليل النحوي، والاستقراء، والقياس، ونظرية العامل.

مشكلة الدراسة: هناك مزاعم كثيرة ترى أن أصول التفكير النحوي عند الخليل ما هي إلّا نتاج التأثر بالفلسفة والمنطق اليونانيين، وتدعم رأيها بالعديد من الروايات، بينما يرى البعض أن هذه المزاعم غير صحيحة، وإنما أصول التفكير النحوي عند الخليل أصيلة ومن بنات أفكاره.

عليه، تسعى هذه الدراسة لحل هذا المشكل من خلال الإجابة عن السؤال التالي:

ما مدى تأثر أصول التفكير النحوي عند الخليل بن أحمد بأفكار الفلاسفة والمناطقة اليونانيين والفقهاء، وغيرها من المؤثرات من عدمه؟

هذا، ويمكن تفريع هذا السؤال إلى الأسئلة التالية:

- ما أصول التفكير النحوي عند الخليل التي اتصفت بالأصالة؟
- ما أصول التفكير النحوي عند الخليل التي أثرت فيها بعض المؤثرات؟
- ما المؤثرات التي أثرت في بعض أصول التفكير النحوي عند الخليل؟

والإجابة عن هذه الأسئلة تشكل حلا للمشكل من ناحية، ونتائج الدراسة من ناحية أخرى.

أهمية الدراسة: تكتسب هذه الدراسة أهميتها من خلال ارتباطها بالخليل بن أحمد من جانب، وما له من مكانة مرموقة في خارطة الدرس النحوي، ومن جانب آخر تكتسب أهميتها من أنها دراسة تأصيلة تبحث عن مدى أصالة أو تأثر الخليل في تفكيره النحوي

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة في مجملها إلى ما يلي:

- الوقوف على أصول التفكير النحوي عند الخليل بن أحمد.
- معرفة مدى أصالة هذه الأصول.
- الوقوف على المؤثرات في هذه الأصول.
- الوقوف على الآراء القائلة بالتأثر، والقائلة بعدمه ومناقشتها.

منهج الدراسة: تقتضي طبيعة الدراسة الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي؛ لوصف الحقائق، ثم تحليلها بغية الوصول إلى نتائج علمية، كما أنها اعتمدت على المنهج التاريخي للوقوف على تاريخ من روي أن الخليل تاثر بهم، هذا فضلا عن المنهج الاستقرائي؛ بغية استقراء الحقائق ورصدها.

الدراسات السابقة: لم يقف الباحث– من خلال البحث– على دراسة بالعنوان الذي حدده لهذه الدراسة، ولكن هنالك بعض الدراسات ذات ارتباط بهذه الدراسة، ومن أبرزها: دراسة على أبو المكارم (2006) تحت عنوان: أصول التفكير النحوي، ودراسة محمد عبد الفتاح الخطيب (2006) تحت عنوان: ضوابط التفكير النحوي، ودراستي: مرتضى فرح علي (2016): القياس النحوي عند الخليل بن أحمد بين التأثير المنطقي والفقهي، غيرها.

محاور الدراسة: تقع هذه الدراسة في عدد من المحاور، هي:

–**المقدمة:** وتشمل المشكلة، الأهمية، الأهداف، المنهج، والمحاور.

–مفهوم أصول التفكير النحوي، وتحديده.

– **أصول التفكير النحوي عند الخليل**، وتشمل: المسموع، الاستقراء، القياس، التعليل، ونظرية العامل.

– **الخاتمة:** وتتضمن أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث.

مفهوم أصول التفكير النحوي وتحديده: أصول التفكير النحوي في هذه الدراسة نعني بها التعميم والتجريد، ووضع النظرية التي مكنت النحاة من تحديد النظام النحوي للغة العربية. وهي دراسة الخطوط الرئيسة التي اتبعها النحويون وساروا عليها في بحثهم النحوي، وأثرت في إنتاجهم وفكرهم النحوي.(أبو المكارم،2006م، ص17.)

وهي كذلك: ((ذلكم النتاج الذي استخرجته عقول النحاة العرب من خلال التفكير في اللغة وتعمق النظر فيها، والوقوف على طريق العرب في لسانها، ومعهود خطابها وفق أسس ومنطلقات منهجية بنوا عليها ذلكم الفكر، ويمثله في الحضارة العربية الإسلامية تراث ضخم من القواعد والضوابط والتفاسير، والتعليلات، التي حاول بها نحاة العربية إدراك سر هذه اللغة الشريفة في: أساليبها، وتراكيبها، وانتظامها) (الخطيب، 2006، ص23)

وهي تتسم بالشمول؛ حيث يتم من خلالها تناول الأسس الكلية التي اعتمد عليها النحاة في بناء القواعد الجزئية والأحكام التفصيلية.(أبو المكارم، ص11)

مماسبق يمكن القول إن أصول التفكير النحوي تعني الأسس التي انطلق منها النحاة في بناء صرح النحو العربي بما في ذلك أصول النحو، فأصول النحو تعتمد على أصول التفكير النحوي، وهي جزء منه. وبصورة أخرى هي الأفكار الأساسية والمرتكزات التي انتجوا من خلالها الدرس النحوي بأبعاده المختلفة، وبإيجاز في هذه الدارسة نحددها: بالمنهج والفكرة عند الخليل في جمع المسموع، واستقرائه، والقياس، والتعليل، ونظرية العامل التي يقوم عليها الإعراب وبالتالي نظام الجملة في اللغة العربية.

المسموع: يعد السماع أحد وأهم عمد النحو العربي وأصوله وأولها؛ فبه تبدأ عملية التقعيد النحوي. ويعرف بأنه أحد طرق أخذ اللغة، وهو أول أدلة النحو، وقد عرفه إليه السيوطي (ت911هـ) بقوله: ((وأعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته))(السيوطي،1427هـ-2006م، ص39) وبصورة أوضح فهو يعني: ((الحصول على النص والوقوف عليه، والتأمل فيه)) (شرف الدين، 1968م،ص ب) فهو ((عملية مقصودة من الباحث يهدف بها إلى استقراء المادة وجمعها)).(عبد اللطيف، 1416هـ-1996م،ص13)

فالسماع إذن هو العملية التي تسبق الاستقراء الذي يهدف إلى استنباط القاعدة النحوية، ويبدو أن الخليل كان يعوّل كثيرا على المسموع الذي تقوله أعراب البادية. ومما جاء في ذلك أن الكسائي (ت 189هـ) عندما لحنه البعض أخذ يبحث عمن يعلمه النحو حتى لا يلحن، فجاء الخليل في البصرة- وكان الخليل في حلقة درسه- فقال له أعرابي: أتركت أسد الكوفة وتميميها وعندها الفصاحة وحضرت للبصرة!. فسأل الكسائي الخليل: من أين أخذت هذا العلم؟ فقال الخليل: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة. فخرج الكسائي للبادية، ومكث فيها حتى أنفد خمس عشرة قنينة حبرا سوى ما حفظ، ثم رجع وهمه البصرة والخليل فوجد الخيل قد مات. (الحموي،1441هـ-1991م،ج4،ص88)

فمن خلال هذه الرواية يمكن تقرير الآتي:

أولا- إن الخليل بن أحمد من أوائل النحاة الوافدين إلى البادية حيث إنه هاجر إلى بوادي الحجاز ونجد وتهامة.

ثانيا- إن النحاة والأعراب يرشدون المهاجرين للبادية إلى مواضع الفصاحة، فالأعرابي أرشد الكسائي إلى أسد الكوفة وتميمها، والخيل أرشده إلى حيث هاجر هو.

ثالثا- إن جمع المسموع كان يقوم على الحفظ والكتابة معا، فالكسائي كتب وحفظ في رحلته.

هذا فضلا عن اعتماده على القرآن الكريم الذي هو مجمع عليه من قبل النحويين بصريهم وكوفييهم.

وهنا يمكن القول إن جمع الشواهد المسموعة من البوادي لا تشوبه شائبة أنه من بنات أفكار الخليل، وليس هناك أدنى تأثر بأية فكرة منطقية أو فلسفية وافدة، فلم ترو لنا كتب الطبقات، أو كتب تاريخ النحو أن الخليل في جمعه الشواهد وتوجيه غيره كان متأثرا بفكرة ما، أو تتلمذ على أحد الفلاسفة والمناطقة في هذا الشأن. كما أن الخليل اختط منهجا واضحا في أخذ المسموع يظهر لنا من خلال قصته مع الكسائي– إن صح تسميتها قصة– حيث يوجه الساعين إلى جمع المسموع إلى البادية، ولا يمكن أخذه عن الحضر.

الاستقراء: الاستقراء يعني الملاحظة، والتتبع، والحصر، والإحصاء لما جمع من شواهد ، ثم ملاحظتها بدقة لاستنباط الحكم النحوي، وهو ما عَّبر عنه ابن السراج (ت316هـ) بقوله: ((فباستقراء كلامهم علم أن الفاعل رفع والمفعول به نصب)).(ابن السراج،1405هـ–1985م، ج1، ص32)

ولعل معرفة النحاة لرفع الفاعل، ونصب المفعول، وغيرها من أحكام الإعراب والبناء لن تتضح لهم إلا بعد التتبع، والملاحظة، والحصر، والإحصاء، والذي أُطلق عليه مصطلح

(الاستقراء).

وطريقة المنهج الاستقرائي هي تعميم النتائج بملاحظة بعض الحالات، فالباحث: ((إذا أراد بحث ناحية من نواحي اللغة استطاع أن يستمد الأمثلة والشواهد الكثيرة من عدد كبير من اللغات، وبذلك يكون بحثه أدق وأضبط، واستنتاجاته أصح وأحكم)).(المبارك،1379هـ–1960م،ص30)

ويمكن القول إن الخليل سار على هذا المنهج؛ حيث توفرت لديه كثير من المادة اللغوية التي منها ما قرأه على أبي عمر بن العلاء (ت154هـ)، وما سمعه عن عيسى بن عمر الثقفي (ت149هـ) وما وقف عليه من مؤلفاته التي أثنى على (الجامع) و(الإكمال) منها، وما جمع من أعراب بوادي الحجاز ونجد وتهامة.(ولد أباه،1429هـ–2008م،ص74) وهناك الكثير من الأمثلة التي توضح استقراءاته، ومنها قوله: ((أبد: وأتان أبد : في كل عام تلد، وقيل الآبد الوحشية، ويقال:أَبِل أَبِد، وليس في كلام العرب فَعِلٌ إلا أن يتكلف متكلف فيبني كلمة محدثة على فَعِل فيتكلم بها، فأما ما جاء عن العرب فهو الذي جمعناه)) (الفراهيدي، 1424هـ–2003م،ج1،ص51) فهو من خلال ما جمع من كلام العرب، ثم استقرأه واستنبط ما وصل إليه من نتيجة، وهي أنه ليس في كلام العرب (فَعِلٌ) وما يقال ليس مما قالت العرب، وإنما هو مستحدث.

ومن استقراءاته –أيضاً– ما رواه عنه تلميذه سيبويه (ت 180هـ) في حديثه عن أفعال القسم قائلا: ((وزعم الخليل أن النون تلزم اللام كلزوم اللام في قولك: إنْ كان لَصَالحا، فأن بمنزلة اللام، واللام بمنزلة النون في آخر الكلمة)) (ابن قنبر،1408هـ–1988م،ج3،ص14)

ففي هذا المثال يرى الخليل من خلال استقرائه أنه كلما وقعت اللام في جواب القسم لزم أن تصحبها نون التوكيد في آخر الفعل، نحو قولك: والله لأتوبنّ، كما استعان بقياسها على لزوم اللام في قولك: إنْ كان لصالحاً.

مماسبق يتضح أن الخليل كان يعتمد في استقرائه على الملاحظة والإحصاء فيما جمع من كلام العرب، ولعل فكرة الاستقراء عنده أصيلة في كل أبحاثه، حيث بنى عليها علم العروض، ومعجم العين.

القياس: يعد القياس من الأصول التي يقوم عليها النحو العربي، عليه لا بد من أن يكون هناك تفكير قياسي يقوم عليه هذا القياس. وعرف ابن الأنباري القياس،(ت 577هـ) بقوله: ((القياس في عرف العلماء عبارة عن تقدير الفرع بحكم الأصل... وقيل: هو إلحاق الفرع بالأصل بجامع. وقيل: هو اعتبار الشيء بالشيء بجامع،

وهذه كلها حدود متقاربة)) (ابن الأنباري، 1377هـ-1957م،ص93) والأصل هو المقيس والفرع هو المقيس عليه، وتجمع بينهما العلة، ثم يأتي الحكم المستنبط، وله أنواع، هي: قياس الطرد، قياس العلة، قياس الشبه.

هذا، ويمكن القول إن القياس النحوي، والدرس النحوي- على وجه العموم- وصل مرحلة متقدمة على يدي الخليل ؛ حيث إنه سار على منهج معين- أي: القياس- وظهرت فيه ظاهرات تؤكد نضجه واكتماله. فقد قيل عن الخليل إنه: ((كان الغاية في استخراج مسائل النحو، وتصحيح القياس فيه)) (السيرافي،1374هـ-1955م،ص3)، وانه: ((كاشف قناع القياس في عمله)).(ابن جني، د.ت، ج1،ص361)

ويظهر من خلال قولهم: ((إنه كان الغاية في استخراج مسائل النحو)) أن الخليل وصل بالدرس النحوي مرحلة النضج لم يصل إليها أحد قبله، فكان بذلك مقصد النحاة، أما قولهم: ((وتصحيح القياس فيه)) و ((وكاشف قناع القياس)) فيدل على أن النحاة قبله كانوا يسيرون على منهج غير واضح المعالم، حتى جاء الخليل ووضع النقاط على الحروف بتوضيحه منهج القياس بعد أن كان لكل واحد منهجه الخاص.

فيا ترى هل هذا القياس النحوي عند الخليل كان أصيلا أم أنه كان متأثراً فيه بعلوم أخرى؟

تشير الأدلة على أن الخليل في قياسه قد كان متاثرا بالقياس الفقهي، ومما يدل على ذلك ما يلي:

1-إقرار الخليل بنفسه أنه يقيس على قياس الفقهاء: يعد الإقرار بالنفس من أقوى الحجج والأدلة عموما، وفي هذا الشأن روى تلميذه الليث بن المظفر قائلاً: ((قلت للخليل: زعمت أن عشرين جمع عُشر، والعشر تسعة أيام، فكان ينبغي أن يكون الثلاثون، سبعة وعشرين يوماً حتى تستكمل ثلاثة أتساع. فقال الخليل: ثمانية عشر يوما عشران، واليومان مع الثمانية عشر جزء من العشر الثالث، وعُدا مع الثمانية عشر يوما فسميت بالجميع. قلت: للدرهم ودانقين ثلاثة دراهم، قال: لا أقيسه على هذا، ولكن أقيسه على قول أبي حنيفة ألا ترى طلقتها تطليقتين وعُشر تطليقة هي ثلاث تطليقات، وليس إلا عُشر تطليقة، فكما جاز لأبي حنيفة أن يعتد بالعشر جاز أن اعتد باليومين))(الفراهيدي،ج1،ص246)

فأي دليل أقوى على تأثر الخليل بالفقه من الإقرار بالنفس، فهو فعل في اللغة كما فعل أبو حنيفة النعمان (150هـ) في الفقه.

2- **التشابه بين بعض الأصول النحوية، والفقهية:** وهي متعددة، ومن أبرزها وأظهرها: قضية الأصل والفرع، وهي مسيطرة على الخليل في تصوره للعلوم جميعاً، وليس في النحو فحسب، ومن ذلك ما رواه عنه القفطي (ت646هـ) أنه قال: ((العلوم أربعة: فعلم له أصل وفرع، وعلم له أصل ولا فرع له، وعلم له فرع ولا أصل له، وعلم لا أصل له ولا فرع))(القفطي، 1369هـ-195م،ج1،ص346-347)

ولما كان الخليل من علماء النحو ومرسخي أصوله، فمن باب أولى أن تنتقل عنده هذه الفكرة من إلى الدرس النحوي، ومن ذلك ما قاله الزجاجي (ت 337هـ):((قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين: المستحق الإعراب من الكلام الأسماء، والمستحق للبناء الأفعال والحروف هذا هو الأصل))(الزجاجي، 1399هـ-1979م،ص77)

عليه، يمكن القول: إن فكرة الأصل والفرع مسيطرة على الخليل في قياسه النحوي، وهي من صميم الدرس الفقهي.(أبو العنين،1969م،ص236)

3- تنبيه بعض الباحثين على هذا التأثر: هنالك العديد من الدراسات التي تشير إلى أن القياس النحوي عند الخليل قد تأثر بالفقه وأصوله. ومن ذلك قول عبد الله بن أحمد الخثران: ((نضج القياس الذي تأثر بالدراسات الفقهية والكلامية، ولا سيما عند الخليل بن أحمد)) (الخثران، 1413هـ-1993م،ص56). ويقول أيضاً: ((نجد

القياس يتطور عند الخليل بن أحمد متأثراً بالدراسات الفقهية التي كانت تعاصر نشأة النحو في هذه المرحلة)).(ص56) ثم يوضح ملامح التأثر بالدرس الفقهي في قوله:((ومن أساليب الفقهاء عند الخليل بن أحمد: التأويل، والحمل على النظير، والاستدلال بالأولى. ولتطبيق القياس المتأثر بالدراسات الفقهية ظهرت فكرة الأصل والفرع في الدرس النحوي على يد الخيل بن أحمد)) (ص56)

هذا، وعلى النقيض يذهب البعض إلى أن القياس عند الخليل قد تأثر بالقياس المنطقي ويقف خلف هذا المذهب: دي بور، وأحمد أمين، والدكتور إبراهيم مدكور، والدكتور مصطفى نظيف. ويرون أنه تأثر بحنين بن إسحق (260هـ) وعبد الله بن المقفع (ت142هـ). أما دي بور فيقول: ((و ابن المقفع الذي كان في أول الأمر صديقاً للخليل بن أحمد يسر للعرب الاطلاع على ما كان في اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية)) (دي بور،1374هـ-1954م،ص58). ويبرز رأي أحمد أمين من خلال حديثه عن حنين بن إسحق؛ حيث يقول: ((فذهب إلى أرض الروم، وأجاد تعلم اليونانية، ثم عاد إلى البصرة ولازم الخليل يأخذ عنه العربية))(أمين، د.ت،ج1،ص198) ويسير الدكتور إبراهيم مدكور على الطريق نفسه، ويتضح هذا من قوله: ((وقد تعلم العربية في سن متقدمة وعانى منها ما عانى، ومن اليسير أن نتصور فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية)).(بيلو، 1408هـ-1980م،ص82) يقصد حنيناً. وآخرهم الدكتور مصطفى نظيف، ويبدو أنه نقل من سابقيه، ويظهر هذا بوضوح من خلال قوله: ((إن الخليل كان قد تأثر بالعلوم المنقولة عن اليونان، وإنه من الثابت أن الخليل كان متصلاً بحنين بن إسحاق، وأن حنيناً تعم العربية على يد الخليل)).(ص82)

خلاصة هذا المذهب أن الخليل بن أحمد قد لازم كلا من ابن المقفع وحنين بن إسحق حينا من الزمن، وهما ممن نقل المنطق اليوناني إلى العربية، فمن باب أولى أن يكون الخليل بن أحمد قد تأثر بهما في قياسه النحوي. لكن فقد اتضح من خلال الدارسة المتأنية أن هذا التأثر المنطقي لا أساس له من الصحة، فتواصل الخليل بحنين لم يكن صحيحا، بل غير ممكن أصلا، كما أن الخليل لم يكن صديقاً لابن المقفع، ويتضح ذلك مما يلي:

1-معاصرة الخليل لحنين بن إسحق، والتأثر به : ينفي هذه المعاصرة صالح آدم بيلو قائلا عنها: ((وإن شيئاً من هذه المعاصرة المزعومة، والتلمذة الموهومة، لم يكن لها وجود، برغم هذا الإلحاح من هؤلاء الكتاب على توكيد الصلة والتأثر المتبادل بين حنين والخليل، والسبب الجوهري واضح مبين، وهو أن حنيناً يوم رأى الدنيا وحظي بالوجود فيها، كان الخليل- رحمه الله- قد غادرها من زمن طويل يمتد إلى أربع وثلاثين سنة، فالخليل توفي سنة 160هـ، وحنين ولد سنة 194هـ، وإذا أخذنا بما ذكر أحمد أمين نفسه من أن الخليل توفي سنة 175هـ، فإن وفاته هذه تسبق مولد حنين بحوالي عشرين سنة))(ص82-83)

عليه، فالسند التاريخي ينفي هذه المعاصرة، وينسف الفكرة السائدة التي تقول إن الخليل قد تأثر في قياسه النحوي بقياس حنين بن إسحق المنطقي.

2- صداقة الخليل لعبد الله بن المقفع والتأثر به: نفى صالح آدم بيلو هذه الصداقة، طارحا سؤالا قائلا فيه : ((هل كانت صداقة حقا بين الخليل وابن المقفع؟ وهل كان هناك تلازم بينهما مما يتيح لكليهما التأثر بأخيه، وفهم أفكاره؟ الجواب أنه لم يعرف عنهما أنهما كانا صديقين أو متلازمين، بل أن ما ذكر عنهما ينفي هذه الصداقة نفياً تاماً)) (ص68)

ويؤيد ما ذهب إليه بما روي عنهما: أن الخليل كان يحب أن يرى ابن المقفع، وكذلك ابن المقفع كان يحب أن يرى الخليل، فجمع بينهما بوسيط فتلازما ثلاث ليالٍ أو ليلة. وبعد انقضاء اللقاء بينهما، قيل للخليل: كيف

رأيت ابن المقفع؟ فقال: ما رأيت مثله، وعلمه أكبر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: ما رأيت مثله، وعقله أكبر من علمه.(الزبيدي، 1984م،ص49)

ويعقب بيلو على هذه الرواية قائلاً : ((وهذا يدل على أن الصداقة بينهما كانت غير موجودة، مما أحوجهما إلى وسيط يصل بينهما)) (بيلو،ص79)

وهذا أقرب إلى الصواب فكيف تكون بينهما صداقة، وهما لم يلتقيا إلا ليالي معدودات– إن صحت الرواية– وكيف يتأثر الخليل بابن المقفع؟!.

3– عدم إلمام الخليل باليونانية وقياسها المنطقي: إضافة لما تقدم من أمر المعاصرة بين الخليل وحنين بن إسحق، وصداقة الخليل لعبد الله بن المقفع يمكن القول: إن الخليل لم يكن ذا معرفة باليونانية حتى يتسنى له التأثر بها في زمن وجيز؛ فهناك خبر أورده الزبيدي (ت379هـ) عن الخليل يقول فيه: ((ويروى أن ملك اليونان كتب إلى الخليل كتابا باليونانية، فخلا بالكتاب شهراً حتى فهمه، فقيل له في ذلك، فقال: قلت إنه لا بد له من أن يفتح الكتاب ببسم الله، أوما يشبهه، فبنيت أول حروفه على ذلك فاقتاس لي)).(الزبيدي،ص51)

يتضح من هذا الخبر أن الخليل لا علاقة له باليونانية، وإلا لما مكث شهرا كاملا في محاولة لفهم خطاب! هذا من جانب، ومن جانب آخر فالخليل لم يفهم الخطاب كما في الخبر، إذ إنه قاسه على الخطاب العربي وتخيل أنه فهمه.

4 – إن ترجمة الفلسفة والمنطق لم تبدأ إلا في عصر الخليفة العباسي المأمون (218هـ) وقد كان الاهتمام قبل عصر المأمون بترجمة الفلك والرياضيات والطب.(حساين؛ وقدور، 2014م، ص44) فأنى للخليل أن يتأثر بشيء لا وجود له! بل أن هذا الأمر قد بدأ بعد وفاته.

مما سبق يمكن الخلوص إلى أن القياس النحوي عند الخليل قد تأثر بالقياس الفقهي، وليس بالقياس المنطقي كما يرى البعض.

التعليل: أو العلة، وهي ما يجمع بين المقيس والمقيس عليه، ولها شروط ومسالك، وتفريعات لا يسع المجال لذكرها.

ويظهر أن الخليل كان صاحب منهج واضح المعالم في التعليل النحوي، ويتضح هذا المنهج من خلال مار واه عنه الزجاجي قائلا: ((إن الخليل بن أحمد سُئل عن العلل التي يعتل بها في النحو، فقيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟. فقال: إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما علته فيه، فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علة له، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق، أو بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا، والسبب كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباله، محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي داخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن سنحت لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرت بالمعلول فليأت بها)) (الزجاجي،ص65–66)

من خلال ما رواه الزجاجي عن الخيل يتضح الآتي:

أ– اعتل الخليل بالاعتماد على العقل والتفكير، ولم يأخذ علله عن العرب، وهذا يعني أصالة فكرة التعليل عنده.

ب- قد يكون هناك تعليل غير الذي ذكره؛ لذلك ترك الباب مفتوحا لم يأت بعده ويسنح له تعليل غير الذي اعتلّ به.

هذا، ومن تعليلات الخليل ما رواه عنه تلميذه سيبويه في حديثه عن (لن) الناصبة للمضارع قائلا: ((فأمَّا الخليل فزعم أنها لا أنْ، ولكنهم حذفوا لكثرته في كلامهم، كما قالوا: ويْلِّمه، يريدون: ويْ لأُمه، وكما قالوا يومئذٍ، وجعلت بمنزلة حرف واحد، وكما جعلوا هلّا بمنزلة حرف واحد، فإنما هي لَهْ ولا)) (ابن قنبر،ج3،ص5) فعلة الحذف عموما هي كثرة الاستعمال، ويأتي بعدد من النظائر التي حدث فيها الحذف، مثل: ويلّمه، حينئذٍ، هلّا.

مما سبق يتضح جليا أصالة فكرة التعليل النحوي عند الخليل، وأنه كان يعمل فكره، ويؤيد هذا أنه يؤمن قد يكون هناك تعليل آخر، وهذا الرأي يبعده عن شبهة التأثر بغيره في منهجه العام للتعليل النحوي.

نظرية العامل: فكرة نظرية العامل أن ما يعتري الكلمات من إعراب ناتج عن دخول عوامل عليها، وهي أما لفظية، مثل: النواسخ، ونواصب المضارع وجوازمه ، وأما معنوية، مثل: الابتداء الذي يرفع المبتدأ، فهي الأساس لتفسير إعراب الكلام في أنساقه المتباينة. وقد فرعها النحاة فروعا متعددة، وقد نادى البعض برفض هذه النظرية ومن أبرزهم ابن مضاء القرطبي (ت592هـ)، في كتابه (الرد على النحاة) (ابن مضاء القرطبي، 1366هـ-1947م،ص70-79)

والظاهر أن الخليل من أوائل النحاة الذين رسخوا فكرة العامل في الدرس النحوي- هذا إن لم تكن هي وليدة بنات أفكاره- فما مصدر تفكيره في هذه النظرية، فهل هي أصيلة عنده أم أنه استمدها من خلال تأثره بأفكار وافدة؟.

يرى ولد أبّاه أن نظرية العامل هي من وضع الخليل، فالإعراب عند الخليل ليس وضعا اعتباطيا يقع دون أسباب معينة، لذلك أكد أن نسق الكلام لا يتغير إلا بسبب تأثير عوامل خاصة، واستخلص وجود أربعة أقسام من العوامل منها ما هو ظاهر، أو معنوي، أو محذوف، أومفترض. (ولد اباه،ص77)

العامل المعنوي: قد يكون العامل المعنوي يتمثل في الوضع الأصلي للكلام قبل وجود العوامل الأخرى؛ و لذلك فهو الذي يعمل في المبتدأ، و في المضارع المعرب و المجرد من النواصب و الجوازم، (ابن قنبر، ج2،ص382) ويستمد تأثيره من معناه؛ لذلك سمي (العامل المعنوي).

العامل اللفظي: مثل الأفعال، و النواسخ الفعلية و الحرفية، و أدوات الشرط و الجزاء، وحروف المعاني، و هذه العوامل تؤثر حسب رأيه في جميع أجزاء الجملة. فالفاعل والمفعول كلاهما معمول للفعل، و النواسخ تعمل في المبتدأ و الخبر و أدوات الشرط تعمل في الشرط و الجزاء.

العوامل المحذوفة: و إذا ما رأينا تأثيرا في الإعراب، دون ظهور العوامل، فإن الخليل يدعو إلى تقديرها استنادا على دلالة السياق. وذلك مثل قولك: صبراً أيها الرجل. فالتقدير: اصبر صبرا.

العوامل المفترضة: و إن لم يكن للإعراب عامل أساسي كالمعنوي، أو عامل لفظي أو محذوف يسهل تقديره، فإن الخليل يلجأ حينئذ إلى ما يمكن أن نسميه بالعوامل المفترضة. ومنها النصب على الترحم، و الدعاء، و المدح و الذّم. و من هذه العوامل عند الخليل، نزع الخافض، و هو لا يعمل إلا النصب.(ج1،ص38)

و فكرة تنوع العوامل عنده جعلته يجيز عدة احتمالات في توجيه الإعراب. و من ذلك : :يا تميم أجمعون أو أجمعين.(ج2،ص284)

مما سبق يظهر أن فكرة العامل عند الخليل أصيلة مثلها ومثل العديد من نظرياته اللغوية المتعددة، ولم تبرز معالم التأثر بالمنطق اليوناني أو بالفقه الإسلامي، وقد يقول قائل إنها من فكرة التأثير والتأثر المنطقية، فيجيء

الرد أن الرجل لم يتأثر بهذا التيار كما ثبت في القياس، وأن بيئته العلمية لم توفر له معطيات التأثر بالمنطق اليوناني.

الخاتمة

توصلت هذه الدارسة إلى العديد من النتائج، يمكن إيجازها في النقاط التالية:

1-اتسم تفكير الخليل في نقل المسموع بالأصالة؛ حيث بنى فكرته على الهجرة للبادية، ولم يشر للحضر من قريب ولا بعيد.

2-كان تفكيره في الاستقراء يقوم على استقراء ما جمعه من كلام العرب، وهي كذلك فكرة أصيلة لا تأثر فيها.

3-تأثر في تفكيره في القياس النحوي بتفكير الفقهاء، وأقر بنفسه أنه ينهج نهجهم، ويقيس على طريقتهم.

4-تشير كل الأدلة والمعطيات أن الخليل في تفكيره النحوي في القياس كان بعيدا عن التأثر بالفلسفة والمنطق اليونانيين.

5-كانت العلة النحوية عنده غير معقدة، وفكرته فيها أصيلة تنبني على أنها من عنده، وربما يعتل آخر بما لم يعتل به.

6-يعد الخليل صاحب فكرة نظرية العامل؛ حيث سيطرت عليه هذه الفكرة في تفسير الإعراب من خلال اتساق الكلام، وهي من أصيلة عنده.

قائمة المصادر والمراجع

1-أبو الطيب اللغوي؛ عبد الواحد بن علي، (1430هـ-2009م) مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، صيدا، بيروت.

2- أبو المكارم، علي، (2006) أصول التفكير النحوي، ط1، دار غريب،القاهرة.

3-الخطيب،محمد عبد الفتاح(2006)،ضوابط التفكير النحوي(دراسة تحليلة للأسس الكلية التي يبني عليها النحاة آراءهم)،ط1،دار البصائر،القاهرة.

4-السيوطي،عبد الرحمن بن كمال الدين بن أبي بكر جلال الدين (1427هـ-2006م)، الاقتراح في أصول النحو،تحقيق:عبد الحكيم عطية،ط2،دار البيروني، بيروت.

5-شرف الدين،محمود عبد السلام(1968م)،التقعيد النحوي بين السماع والقياس(ماجستير،غير منشور)، كلية دار العلوم،جامعة القاهرة،القاهرة.

6-عبد اللطيف،محمد حماسة(1416هـ-1996م)،لغة الشعر(دراسة في الضرورة الشعرية)،ط1،دار الشروق،بيروت.

7-الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي(1411هـ-1991م)،معجم الأدباء،ط1،دارالكتب العلمية،بيروت.

8-ابن السراج،أبوبكرمحمد بن السري بن سهل(1374هـ-1955م)،الأصول في النحو،تحقيق:عبد الحسين الفتلي،ط1، مؤسسة الرسالة،بيروت.

9- المبارك، محمد(1379هـ-1960م) فقه اللغة وخصائص العربية،دار الفكر،دمشق.

10- ولد أباه،محمد المختار(1429هـ-2008م)،تاريخ النحو في المشرق والمغرب،ط2،دارالكتب العلمية،بيروت.

11- الفراهيدي،أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(1424هـ-2003م)،العين،تحقيق:عبدالحميدهنداوي،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت.

12- ابن قنبر،أبوبشر عمرو بن عثمان بن قنبر(1408هـ-1988م)،الكتاب،تحقيق:عبد السلام محمد هارون،ط3، مكتبة الخانجي،القاهرة.

13- ابن الأنباري،كمال الدين عبد الرحمن بن سعيد(1377هـ-1957م)،لمع الأدلة،تحقيق:سعيدالأفغاني،د.ط،مطبعة الجامعة السورية،دمشق.

14- السيرافي،أبوسعيد الحسن بن علي(1374هـ-1955م)،أخبار النحويين البصريين،تحقيق:طه محمد الزيني،ومحمدعبد المنعم خفاجي،د.ط، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة.

15- ابن جني،أو الفتح عثمان(د.ت)الخصائص،تحقيق:محمدعلي النجار،ط1،دار الهدى،بيروت.

16- القفطي،جمال الدين أبو الحسين علي بن يوسف(1369هـ-1950م)،إنباه الرواة على أنباه النحاة،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،د.ط،دار الكتب المصرية،القاهرة.

17- أبو العينين،بدران(1969م)،أصول الفقه،د.ط،دار المعارف،مصر.

18- الخثران،عبد الله بن أحمد(1413هـ-1993م)،مراحل تطور الدرس النحوي،د.ط،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

19- دي بور(1374هـ-1954م)،تاريخ الفلسفة في الإسلام،ترجمة:محمد عبد الهادي أبو ريدة،ط3،دار النهضة العربية،بيروت.

20- أمين،أحمد (د.ت)،ضحى الإسلام،د.ط،دار الكتاب العربي،بيروت.

21- بيلو،صالح آدم(1408هـ-1980م)،الثقافات الأجنبية في العصر العباسي(132-334هـ)وصداها في الأدب العربي،ط1،المديرية العامة للمطبوعات،مكة المكرمة.

22- الزبيدي محمدبن الحسن بين عبيد الله بن مزحج(1984م)،طبقات النحويين واللغويين،تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،ط3،دار المعارف،القاهرة.

23- حساين،محمد؛ وقدور،ملوك(2014م)،دور حركة الترجمة والنقل في الحياة العلمية إبان العصر العباسي الأول(ماجستير،غير منشور)،جامعة بسكرة، الجزائر.

24- الزجاجي،أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق(1399هـ-1979م)،الإيضاح في علل النحو،تحقيق:مازن المبارك،ط3، دار النفائس،بيروت.

25- ابن مضاء القرطبي،أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد(1366هـ-1947م)،الرد على النحاة،تحقيق:شوقي ضيف،ط1،دارالفكر العربي،القاهرة.